صورة المجتمع الحضني من خلال رحلة شارل دو غالون 1897 " رحلة إلى بوسعادة ومسيلة".

The portrait of a society of Al-hodna through the journey of Charles de Gallon, 1897 ; A trip to Bousaada and Msila.

عبد العزيز راجعي

طالب دكتوراه، جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة2 .

الملخص:

يعرف أدب الرحلات على أنه مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلدان مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، لتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحـل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد.

وعليه نجد للصدق والخيال دورا هاما في أدب الرحلات، ورغم هذا فإن كتب الرحلات تؤدي وظيفة تاريخية هامة، تتمثل في الكشف عن العديد من الظواهر التاريخية التي غفلت عنها بعض الكتب التاريخية خلال الفترة الحديثة والمعاصرة. فهي بحق –كتب الرحلات والجغرافيا- تعد من بين أهم المصادر التي تعرفنا بمختلف جوانب الحياة الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية...إلخ للأمصار التي زارها هؤلاء الرحالة من جهة، ونقل الكثير من الصور والمشاهد من جهة أخرى. فهي بذلك حافظة للموروث الحضاري للمجتمع. ومثال ذلك الكتابات المتعددة للرحالة الأوربيون وخاصة منهم الفرنسيون أمثال شارل **دوغالون** ورحلته " رحلة إلى بوسعادة ومسيلة " سنة 1897م وهي موضوع هذا المقال. رحلة ذات طابع أدبي، اجتماعي وإنساني، الغاية منها إبراز أهمية الرحلة الأوربية (الفرنسية) كمصدر في دراسة التاريخ المحلي لمنطقة الحضنة، والتعرف على صورة المجتمع الحضني بجوانبه: الاجتماعية، السياسية، العسكرية، الثقافية، الدينية...إلخ. لأن التاريخ المحلي لايزال يحتاج إلى البحث والدراسة خاصة في الفترة الاستعمارية.

الكلمات المفتاحية: الرحلة الأوربية، المقاومة الشعبية، زاوية الهامل، الحضنة، الواحات.

Abstract :

The travels literature is known as it’s a group of literary monuments which talk about the impressions of the author and his trip in different countries, he’s may be expose to describe what he sees from habits, behavior and ethics for accurate recording to the natural views that he saw it. Or he tells the stages of his trip stage by stage. Or he combines between all of this in the same time .

Accordingly, we find that the honesty and the imagination have a great role in the travel's literature. Despite this, the books of travels lead to historical and important job, which is represent in the detection of many historical phenomena that some historical books overlooked it in the modern and contemporary periods. Rightly it is - the books of travels and geography- one of the most important sources that makes us know a various sides of life (like social side, economic and political sides) to the places which the travelers visit it from side. in addition, carriage a lot of pictures and views from the other side, so it's portfolio for the cultural heritage of the society, the best example is the multiple writings of the Europeans travelers especially the French one like Charles De Galland and his travels " Travel to Bousaada and M'sila" in 1897, this represents the subject of my article. It's travel with a literary, social and humanist characters, the purpose of it is presentation the importance of the Europeans travels) the French one) as a source in the study of the local history in Hodna from side, and recognition the picture of the society in Hodna with his sides :social, economic, political, cultural, military, religious…etc from the other side. Because the local history is still needs to study especially in the colonial period.
Keywords : The European journey, the popular resistance, Zawya of the Hamel, Al hodna region, oases.

تقديم:

من المصادر التي تتميز بالجدية و التي يعتمد عليها في كتابة تاريخ الجزائر أثناء فترة الاحتلال الفرنسي الرحلات التي قام بها الأوربيون إلى الجزائر وجابوا مختلف مناطقها، ونقلوا لنا معلومات غزيرة بالأحداث التاريخية ومعطيات وفيرة حول الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

هذه الرحلات في غاية الأهمية كونها تساعد الباحث والمؤرخ من الاطلاع على كم هائل من المعطيات التاريخية والمادة الخبرية الخاصة ببعض المناطق الداخلية للجزائر ، من بينها منطقة الحضنة التي كانت مقصدا وهدفا لعدة رحالة أوربيين، الذين تركوا لنا مادة خبرية قيمة ساهمت إلى حد بعيد في إقامة تصور حي عن مجتمع الحضنة في أواخر القرن 19 م وبدايات القرن 20م .و من بين هؤلاء الرحالة الفرنسي " **شارل دو غالون Charles De Galland** 1851- 1923م ، و رحلته الموسومة بـ: " رحلة إلى بوسعادة ومسيلة " **(EXCURSION à Bou-Saada et M'sila)** سنة 1897م .وعليه نطرح الإشكالية التالية :

كيف كانت صورة مجتمع الحضنة خلال الفترة التي مر بها الرحالة شارل دو غالون؟

I. التعريف بالرحالة شارل دو غالون:

1. نشأتـــه:

ولد الرحالة شارل دو غالون بالدويرة (الجزائر العاصمة) في 17ديسمبر1851م. وفي 21 أكتوبر1871م بدأ تكوينه الجامعي كطالب بثانوية الجزائر. ثم سافر إلى فرنسا ليلتحق بالمجمع المدرسي إيكس(Aix) سنة 1872م. عاد مجددا إلى

ثانوية الجزائر في نهاية السنة نفسها وكلف بالتدريس. أما في سنة 1874م فتم تعيينه بثانوية تورنون (Tournon) ، ليصبح بروفيسور في علم البلاغة والبيان سنة 1875م بثانوية مونتوبان(Montauban). عاد إلى الجزائر سنة 1880 و لم يغادرها، حيث أسندت له مهمة تدريس الطور الخامس ثم الرابع ثم الثالث. وبتاريخ: 04 أوت1891م كلف بإدارة مهام ثانوية الجزائر الصغيرة إلى غاية فيفري 1902م. في هذه الفترة عين كممثل لمحافظة الجزائر في معارضها الدولية، من بينها معرض سنة 1900م.

و في عام 1908م ترأس قائمة إنتخابية بطلب من أصدقائه النواب الذين منحوه ثقتهم، لينتخب أول مرة رئيسا لبلدية الجزائر عام 1910م. أعيد إنتخابه مرة ثانية عام 1912م إلى غاية عام 1919م. بعدها تفرغ للفن والموسيقى التي أحبها كثيرا، كما أحب الأدب وخاصة منه الأدب الجزائري.

من أهم إنجازاته أثناء فترة رئاسته لبلدية الجزائر، حديقة الحرية التي أنشأها سنة 1915م، تقع بشارع ديدوش مراد و تتربع على مساحة ثلاث هكتارات، تضم المتحف الوطني للآثار القديمة والآثار الإسلامية، بالإضافة إلى الإدارة المركزية والمكتبة، مدرسة ابتدائية ونصبا تذكرايا تخليدا له. كما تحتوي على أجمل وأروع الأشجار والنباتات والزهور المشكلة لمختلف المساحات الخضراء، وكذا المساحات أخرى للاستراحة مزينة بمربعات خزفية يرجع تاريخها للعهد الإسلامي. كل هذه الخصائص كانت سببا في تصنيفها سنة 1968م[1].

تجمعت في شخصه مجموعة من الصفات، فكان دائم الابتسامة، لطيف، بشوش، يتسم بطيبة النفس وسماحتها و العدل، وكان بهذا يرغم خصومه على معاملته بكل احترام وتقدير. توفي يوم 22 مارس 1923م عن عمر ناهز الواحد و السبعين سنة.

2. مؤلفاتــه:

وكانت له عدة مؤلفات نذكرها منها:

- كتاب روعة الجزائر (Alger pittoresque).
- كتاب بجاية (Bougie)
- رحلة إلى بوسعادة و زاوية الهامل[رحلة إلى بوسعادة ومسيلة]
- تاريخ ثانوية الجزائر (l'histoire du lycée d'Alger)[2]
- التسلق في جرجرة (Ascensions Dans Le Djurjura)[3]

II. الجانــب الجغـرافي:

1. منطقـة بوسـعادة:

تبعد مدينة بوسعادة 70 كلم عن عين الحجل[4] و تقع جنوب غرب الحضنة على سفوح جبل سلات، على إرتفاع 578م، وتتميز بحرارة شديدة عكس المناطق المساوية في الارتفاع، وتتمتع بأجواء متقلبة وشديدة القوة من رياح وحرارة إلى غير ذلك نظرا لموقعها وسط جبال ذات جدران صخرية ملساء، حيث تصل درجة الحرارة في الصيف إلى 42 درجة طيلة أربع أشهر، وهي جافة طوال العام و لا يسجل مقياس المطر سوى 250ملم فقط. كما تواجه ظواهر طبيعية صعبة أخرى مثل الضباب والجليد، الصقيع والزوابع الرملية.

تمتد جبال بوسعادة من القصور والعمور إلى غاية جنوب الهضاب العليا ويبلغ علوها 1500م عن سطح البحر[5].

2. منطقـة الحضـنة:

أما المسيلة التي تبعد عن بوسعادة 70 كلم فتقع في سهل الحضنة، و هو عبارة عن سهل واسع يقع بين جبال أولاد نايل والزاب جنوبا وجبال ريرا شمالا، مشكلا حوضا يقع على إرتفاع 400م عن سطح البحر ويمتد من الشرق إلى الغرب بطول

70 كلم وعرض 25 كلم ويدعي شط الحضنة أو السبخة. يتألف من غطاء نباتي متنوع مشكل من: القطف، الحلفة، الدرين، السدرة، البلبال،الحد وهو طعام الجمال، الطرفـــة، الميكيربة الديس، الرتم، النيسي[6]. يتخلل هذا الشط وادي القصب ووادي الشلال، وواد البيضة[7].

III. الجانـب التاريخـي:

1. نـشأة المـدن ووصفها:

من خلال ما جاء في الرحلة فإن الرحالة اعتمد في حديثه عن نشأة المدن التي زارها، على الرواية الشفوية المنقولة أحيانا وعلى الرواية المكتوبة أحيانا أخرى، وأقر الرحالة بأنه ليس مؤرخا ولهذا لا يستطيع الحكم على مدى صحة أو نفي المعلومات التي قدمها في هذا الشأن وترك الحكم للقارئ، حيث قال«... في كل مرة نتحدث فيها عن أصل المدن العربية، نجد تاريخ نشأتها ممزوجا بين الخيال والواقع. وكوني لست مؤرخا، فإنني أترك الحكم للقارئ لتأكد من صحة المعلومات من عدمها... »[8].

1.1. مدينة سيدي عيسى:

أولا/ التأسيس: حسب الرواية الشفوية، تنسب المدينة إلى مؤسسها سيدي عيسى العربي المرابط، حيث يرقد جسده في قبة، و الذي نزل أجداده بتونس وهناك ولد أبوه محمد بن محمد ثم إرتحل نحو المغرب واستقر بعين الطلبة عند سفح جبل الناقة. ويرقد جثمان سيدي محمد بالقطفة في مدينة لعذاورة. هذا الأخير ترك ثلاث أبناء منهم سيدي عيسى الأكثر شعبية في المنطقة ما بين مدينة عمال وجبال عمور وقد عاش 120سنة. تتلمذ سيدي عيسى على يد الشيخ سيدي عبد العزيز الحاج لمدة 40 سنة، وهو شيخ من نواحي ذراع الميزان، وبعد وفاة هذا الخير حل محله سيدي عيسى وخلفه في عمله وتقواه حتى عدَ من الولاة الصالحين في سن الثمانين، وكانت له كرامات وعرف بالقدرة على الشفاء. توفي الشيخ عن عمر ناهز 120 سنة والدال على قبره حفيده القايد عبد القادر بن أمحمد المبارك[9].

ثانيا/ الوصف: يقول عنها الرحالة بأنها ذات طبيعة عربية بحتة، مظاهرها توحي بالبداوة وحياة الأرياف، قبب منتشرة ومنازل وعربات يجرها أفراد وأخرى تجرها الجياد[10]، لكن المكان يتميز بالصمت ويفتقر إلى الحضارة والحركة، أناس يتمسكون بحياة يومية مملة وحيوانات تكاد تكون برية حتى الطبيعة تخلو من أشكال الحياة والخضرة والهواء، حيث يتنقل البدو هناك مع خيامهم المطوية وينصبونها من مكان لآخر عبر أراض قاحلة لا تبدو منها سوى بعض القبب المنتشرة في التلال وسط صمت رهيب. لم يكن القايد و الباشاغا فقط محل إهتمام الرحالة، بل الفلاح أيضا، أو المسكين كما يسمونه مع برنوسه الأبيض، يبدو من بعيد على رأس قطيع من الأغنام أو في طليعة صف من الجمال، كما هو في الحضنة، وأحيانا تراه يصلي عصرا أو مغربا يعيش حياة بسيطة ولكنها ثمينة على عكس الذين يدعون الحضارة في حين أنهم اتفه الناس[11].

2.1.مدينـة بوســـعادة:

أولا/ التأسيس: من خلال الرواية المكتوبة التي استند إليها القائد غروشار commandant Crocha ، فإن تأسيس المدينة يرجع للقرن السادس الهجري عندما مر رجل يدعى سليمان بن ربيع بالمدينة، الذي استوطن بها لجمالها وغزارة مياهها وكان قد جاور النهر الذي يبعد نحو 2 أو 3 كلم، بالقرب من طاحونة فيريرو. وأقام مساكن له ولأهله والتقى هناك بسي دهيم من نواحي المدية.

في الحقبة نفسها ظهرت شخصية تسمى سيدي ثامر وقد ساقته الأقدار إلى منطقة سيدي نايل، حيث كان يطارد الصقور التي فرت منه حتى وقع بين يدي الولي سي سليمان، ووقعت بينهما محادثة وطمأنينة في منطقة العوينات، فأطلق على المكان إسم الطيبين وعلى سفح الجبل أطلق أولاد سيدي ثامر الصقور، فسمي الجبل كاف الطيور. خرج المرابطون

الثلاثة من منطقة العوينات بحثا عن أراض خصبة، وتقول الروايات أنهم صادفوا ذئبة فتحدثت إليهم ودعتهم إلى التوقف هناك وسميت المنطقة الذيبة. وقد استقروا هناك فعلا وأقاموا منازل لهم و جامع العتيق تيمنا بامرأة ثامر ثم انتشرت المباني حول المكان مكونة المدينة الحالية[12].

أما فيما يخص تسمية المدينة، و بينما كانوا يفكرون في إسم يطلقونه على مدينة مرت قافلة ومعها كلبة تسمى سعادة وكان المسافرون يصيحون بها سعادة ! سعادة! فأعجب المرابطون بالاسم واتخذوه فال خير ثم اتفقوا على تسمية المدينة بوسعادة وتعني بالعربية (أب السعادة)[13]. إذا افترضنا أن هذه الرواية الأخيرة صحيحة فلماذا لم تسمى المدينة أم سعادة وسميت أب سعادة ما دام جنس الحيوان مؤنث؟.

ثانيا/ الوصف: تقع مدينة بوسعادة في مجملها على تلة، ثم تنحدر بالسكنات على شكل مدرج نحو الأسفل وصولا إلى الواحة، التي تفصل المدينة عن الحصن العسكري للدائرة[14]. وبين هذا وتلك توجد بوسطها ساحة تحيط بها مجموعة من الحوانيت، ومخفر الشرطة والمدرسة، وملجأ النايلية والسعداوية، كما يوجد فندق واحد يطل على باعة التمر والتبغ. وإلى جانب الساحة الكبيرة يوجد الشارع الرئيسي للمدينة الذي ينتهي إلى الأحياء العرب من حيثية أين تنتشر وتزدهر تجارة اليهود و الحرفيين العرب.

تبنى المنازل عادة من الطين المجفف ذو اللون الجذاب لكنه غير صلب لأنه غير مقاوم، ويتحلل بسبب الأمطار الكثيفة، منازل أبوابها ضخمة وثقيلة ومزودة بمزاليج خشبية صلبة وبسيطة[15]، وفي العموم فإن عمـــارة المنازل تتشابه من حيث التنظيم الداخلي وتوزيع الغرف والأواني المتوفرة والبالوعات، حيث يشبهها الرحالة بالعمارة اليونانية القديمة[16].

لا يكتمل جمال المدينة إلا بالواحة الساحرة التي تمتد على مساحة 140 هكتار، وتحتوي على 8000 نخلة وأشجار مثمرة متنوعة، من بينها أشجار التين والمشمش والخوخ والرومان والبرتقال والليمون، وعلى أطراف هذه الحدائق الغناء توجد حقول كبيرة من الذرة والشعير والقمح[17]. ولكن هذه الحدائق لم تكن لتوجد لولا نهر (وادي) بوسعادة، فقد إستقر المؤسسون الأوائل حوله، كما يستريح المسافرون من الصحراء عنده.ينحدر هذا هذا الوادي من أعالي أولاد نايل ويشق الجبال ويصطدم بتضاريس وعرة بحيث يتفرع ليمر بأماكن عديدة، فهو يمر بمنطقة الهامل بجوار الزاوية ثم يمر بطاحونة مائية(رحاة فريرو) ويديرها، وأخيرا يقطع مدينة بوسعادة مشكلا شلالا صغيرا وعريض، كأنه مرآة تعكس المناظر المقابلة، تحف مجراه جدران صخرية وأشجار، نبات الصبار و النخيل تنتشر بقوة بعضها شامخ والبعض الآخر متدلي نحو الوادي. يتفرع إلى عدة سواقي تتغلغل في الحدائق لتسقي الشجيرات والخضار، ثم يخرج من هذه المناطق ليصب مباشرة في شط الحضنة، أما في الصيف فإن مردوده يتناقص ليتحول إلى ساقية صغيرة[18].

إنه بحق مكسب جمالي وزراعي هام وجذاب، جعل من الدائرة مركزا اجتماعيا مقصودا من طرف مختلف الفئات والعروش، ومصدر سعادة في نفوس قاطنيها والوافدين إليها؛ هربا من قساوة الحياة؛ بحثا عن أسباب ومصدر الحياة الطيبة السعيدة، ولعل هذه المميزات الطبيعة للمدينة هي سبب تسمية الدائرة ببوسعادة، كونها منطقة تجلب السعادة.فنظرا لمردود هذه الحدائق والواحات والحقول، يشير الرحالة إلى عادة ألفها الفلاحون في المنطقة وهي وضع جماجم الماشية لإبعاد العين والسحر[19].

3.1. **مدينة المسيلة:**

أولا/ التأسيس: إستنادا إلى مؤلفات وأبحاث الدكتور بـولي Pellu، والتي ناقشـــها بروجي رور-Bruguier Roure . يُروى أن وليا صالحا يدعى سيدي بن هيلول انطلق من المغرب في القرن السابع الهجري، ثم أوحى له الله بأن يقيم مسجدا حيث تتوقف جماله. وقد كان ذلك على الضفة اليمنى للنهر القصب، في الجهة اليسرى أين بنيت أولى نواة مدينة المسيلة التي تبعد أربعة كيلومترات عن المدينة الأثرية زابـي (بشيلفة) التي خربها الوندال ثم

أعيد بنائها سنة 539م وسميت جوستنيانا[20]. إن الملاحظ على هذه الرواية أنها تشبه ولحد بعيد حادثة بناء المسجد النبوي عند دخوله المدينة.

الرواية الثانية تشير أنه في نفس الفترة استوطن واليا صالحا آخر يدعي تليس، استقر على الضفة اليسرى لوادي القصب[الذي كان يعرف بوادي سحر سابقا]. حيث قام ببناء مجموعة من المساكن له ولذويه كان بمثابة النواة الأولى للمدينة الناشئة، التي توسعت ثم تعرضت إلى التخريب من طرف الخوارج. ثم قدم الفاطميون سنة 927م حيث أمر أبو القاسم إسماعيل بن عبيد ببناء المدينة المستقبلية على أنقاض خربة التليس، التي إختط حدودها علي بن حمدون الجذامي، والتي سميت بالمحمدية، ثم أخذت اسم مسيلة نسبة لتدفق النهر، وعين علي بن حمدون الأندلسي أول حاكم عليها. وقد ساعد موقعها الذي يتوسط التل والجنوب في الإزدهار[21]. وهذا هو المؤكد لحد الآن من خلال مختلف المصادر فيما يخص تأسيس مدينة المسيلة.

ثانيا/ الوصف: تمتد عمائر المدينة على ضفتي واد القصب، على الجهة الغربية أقيم الحي الأوربي بين تجمعين لحيين عربيين الكوش والعرقوب. وعلى الجهة الشرقية يوجد الحي العربي الذي يضم أربعة أحياء هي : شتاوة ، رأس الحارة ، جعافرة ، خربة التليس. قدر سكان مدينة المسيلة في نهايات القرن 19 بـ 4222 جزائري، 120 أوربي، 95 إسرائيلي.

الحي الأوربي له جادة طويلة يضم الإدارة وبيت الحاكم، ومنزل الطبيب، ثلاثة فنادق، مدرسة، طاحونة مائية، وكل هذه المباني مزودة بحدائق وبساتين. وفي وسط هذا الحي الأوربي ساحة كبرى توجد بها نافورة ماء دائمة السيلان .

أما عن الحي العربي فشوارعه ضيقة وقذارة في الممرات، و البيوت لها مشربيات بحيث تسمح لمن هو بالداخل مشاهدة من هو بالخارج دون أن يراه. والمباني منخفضة آيلة إلى السقوط[22].

2. أحـداث تاريخيـة:

1.2.المقاومة الشعبية بمنطقة بوسعادة: كان أول وجود فرنسي ببوسعادة سنة 1843م، أما عن المقاومة الشعبية فيمكن الحديث عن أهم ثورتين وهما ثورة بوزيان بواحة الزعاطشة، وثورة بن شبيرة داخل مدينة بوسعادة.نتيجة لتذمر سكان المنطقة من تصرفات المستعمر وسياسته المقيتة تجاه الشعب. انطلقت أولى الثورات سنة 1849م بزعامة بوزيان وملازمه سي موسى في جنوب بوسعادة، حيث إتخذوا من واحات الزعاطشة حصنا عسكريا منيعا. و في الوقت نفسه وتشجيعا من بوزيان قام سكان مدينة بوسعادة بقيادة المرابط بن شبيرة بالإعداد للثورة داخل المدينة. وحسب شهادة العقيد بين bien من خلال (رسائل العائلية عن الجزائر) التي كتبها، أنه هناك حرب مقدسة يتم التحضير لها من طرف سكان المدينة، بإقامة الاجتماعات يعقدها الثوار بالأسواق والمنازل، وجمع الأسلحة والذخائر وصنع البارود للقيام بعمل مسلح كبير.

ومن أجل القضاء على هاتين الثورتين، كلفت فرنسا مجموعة من القادة الفرنسيين لإخمادها، كان أولهـــم العقيد بين Pein الذي دام وجوده من:1850/02/14م إلى غاية 1852/02/13م. ثم النقيب فيدراب faidherbe لشهرته وخبرته العسكرية. بعدها تم تعيين القائد الأعلى كروشار خلفا لهؤلاء القادة لخبرته العسكرية وإلمامه بالمناطق العربية وذهنيات السكان هناك، حيث كان يشغل منصب قائدا للدائرة العسكرية بسطيف.

كما يتذكر الرحالة وبنوع من الفخر القادة كل من: كان روبارCanrobert ، بور باكي Bourbaki ، دي باري du Barrai، دولورمال de lourmal ، والجنرال هاربيلون General Herbillon . وقد شارك هؤلاء في العمليات العسكرية التي تمت يوم:26 نوفمبر 1849م، حيث تم إخماد الثورة داخل مدينة بوسعادة والقضاء لاحقا على بوزيان وثورته[23]. و تشير المصادر أنه لولا المساعدة التي تلقتها فرنسا من طرف بعض أذنابها من القبائل و الأسر المجاورة مثل الخليفة المقراني وإبن المقري لكان أمر المقاومة مختلفا تماما.

من بين المحطات الهامة التي لاقت اهتمام الرحالة زيارته للشخصية التاريخية؛ الأمير الهاشمي بن الأمير عبد القادر؛ الذي وصفه برمز المقاومة ضد المستعمر الفرنسي، وهذا اعتراف من الرحالة صريح بشرعية العمل المسلح ضد الاحتلال. كما أشاد الرحالة بدور الأمير عبد القادر في قضية الصراع الطائفي بمنفاه في سوريا، بين الدرزيين والعرب والأكراد الذين ثاروا ضد المارونيين سنة 1860م. وفي سياق الحديث أقر له الهاشمي بمهمته التي أخذها على عاتقه وهي كتابة تاريخ والده الذي جمعه في مجلدين، حيث وجد في ذلك مواساة تعوض عنه بصره الذي فقده[24]. و على ما يبدو قد يكون هذا الكتاب هو نفسه تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر.

2.2. المقاومة الشعبية بمنطقة الحضنة (المسيلة):

شهدت منطقة الحضنة عموما ومدينة المسيلة على الخصوص محطات تاريخية هامة جاء ذكرها في هذه الرحلة، غير أنها موجزة خاصة فيما يتعلق بالتاريخ الإسلامي.

كانت مدينة المسيلة محل نزاعات و ثورات مناهضة للتوسع الحفصي القادم من بوجي (بجاية)، وذلك في الفترة الممتدة من: 1318- 1346م إلى 1394- 1510م. بعدها غزا[25] الأتراك بجاية ثم المسيلة إمتزجوا بالسكان الأصليين مشكلين العنصر الكورغلي(أب تركي وأم جزائرية)، حيث يرجع أصل سكان الأحياء الثلاث الكبرى للمسيلة للأتراك.

و في سنة 1824م تحصن جيشان تركيان بالمسيلة، أحدهما قادم من قسنطينة بقيادة محمد بن نعمان باي، والآخر من الجزائر بقيادة الباشاغا عمر، تمهيدا لقمع الثوار بمنطقة بوسعادة، في هذه الأثناء إستغل عمر هذا الوقت ليتخلص من نعمان واستبداله بصديقه تشاكر، حيث تم إغتيال نعمان ودفنه عند مدخل زاوية بوجملين[26] وتعود أسباب هذه الحادثة إلى سنة 1815م عندما ثارت قبائل أولاد ماضي ضد سياسة الأتراك في جباية الضرائب، وهذا سبب تواجد الحملة العسكرية بقيادة باي قسنطينة نعمان بمساعدة شاكر باي، الأتي من الجزائر من طرف الآغا عمر. وبعد إنتهاء الحملة من مهمتها وفي طريق عودتها دبرت عملية اغتيال نعمان باي من طرف شاكر باي، حيث إعتقل وقتل ودفن بمسجد بوجملين بالمسيلة بسبب الحقد القديم بين هذا الأخير والآغا عمر. وعين تشاكر بايا جديدا لقسنطينة[27].

وفي نهاية العهد العثماني تذكر مختلف الرحلات أن منطقة الحضنة كانت تحت تأثير عائلة المقراني، وخلال سنة 1938م أي بعد معاهدة التافنا . مد الأمير عبد القادر نفوذه إلى شرق الجزائر وجعل في بعض أجزائه ولايات جديدة ، مثل ولاية الزيبان والصحراء ، واتخذ من الحضنة قاعدة للمقاومة ، وعين مجموعة من الخلفاء على هذه المنطقة منهم فرحات بن سعيد ، والحسن بن عزوز والحاج مصطفى أخ الأمير عبد القادر.

بعد هزيمة الحاج مصطفى في معركة المرجة الزرقة قرب سطيف(29 جويلية 1840م) عاد إلى مدينة المسيلة واستقر بها لينظم صفوف المقاومة ويرتب أمور التموين إلى أن جاءت حملة الجنرال نيقريه Général Négrier إلى المسيلة في جوان1841م انسحب بعدها إلى منطقة الديس، بلدية أولاد سيدي ابراهيم حاليا.

وفي سنة 1845م يقوم الجنرال بيدو Bedeau بقيادة حملة عسكرية إلى منطقة المسيلة لينظم شؤونها ويثبت سلطة المقراني على المسيلة ، وكما هو معلوم في شهر أوت من سنة 1846م قدم الكولونيل إينار colonel Eynard الذي كلف بتنظيم وإدارة المنطقة كلها وتعيين سي أحمد بن محمد المقراني خليفة. وفي سنة 1849م قام الكولونيل كاربيسيا Carbuccia بقمع أولى الثوارات المحلية، حيث شهدت المنطقة نوعا من الاستقرار، غير أن الحضنة عرفت معاناة وأحداث أخرى تمثلت في المجاعة ومرض التيفوس سنة 1867م، وقيام الثورة الشعبية سنة 1871م[28].

لعبت منطقة الحضنة بصفة عامة والمسيلة بصفة خاصة دورا بارزا ومهما في ثورة المقراني، خلال التمرد في الفترة الممتدة من 3 جويلية إلى غاية 24 أكتوبر من سنة 1871م. فقد قام السعيد بوداود المقراني قائد الحضنة باحتضان أسرة المقراني وأملاكه التي لجأت إليه طلبا للأمان وتشجيع الناس على التمرد والثورة. وبعد معركة وادي بوعساكر 19 جوان عمل القائد السعيد بن داود وهو عم المقراني على إحتلال سيدي عيسى وبوسعادة ليتحكم بحرية في

القسم الغربي للحضنة والتصدي للزحف القادم من الشرق، لكنه سرعان ما توقف نشاطه بعد الزحف الفرنسي الواسع[29].

وقد كانت هناك العديد من الحملات موجهه ضد مراكز الثوار في المسيلة قادمة من أومـــال Aumal (سور الغزلان)، سيدي عيسى، وسطيف، وبعد إنهزام خلفاء المقراني في المنطقة وإلقاء القبض عليهم، صودرت أملاك أهل المسيلة الذين شاركوا في الثورة وغرموا بـ 47000 فرنك. و تم هدم حي الكوش الذي كان يتجمع فيه أعداء فرنسا و سوي بالأرض[30].

IV. الجانـــب الاجتماعي :

1. التركيبة الاجتماعية للسكان:

1. 1. دائرة بوسـعادة: تمتد دائرة بوسعادة على مساحة 1484725 هكتار وتضم واحد وعشرون عرشا، بما في ذلك ملحقة سيدي عيسى، ويبلغ عدد سكانها 29820 نسمة، وهذه العروش هي: أولاد سيدي إبراهيم، أولاد شريب، أولاد سيدي زيان، الرمانة، أولاد سليمان، الشـــرفات، الهامل، مسعد، أولاد علي بن محمد، أولاد خالد، أولاد عامر الظهارة، أولاد عامر لقبالة، أولاد محمد مبارك، أولاد عمارة.

أما ملحقة سيدي عيسى فهي تضم، العذاورة الشراقة، والعذاورة لغرابة، أولاد عبد الله، أولاد علي بن داود، سيدي عيسى، السلامات، أولاد سيدي هجرس، وتمتد هذه الملحقة على مساحة 20822 هكتار. و عليه يصبح مجموع الدائرة (بوسعادة) والملحقة (سيدي عيسى) : 56237 نسمة[31].

تنقسم المدينة إلى ستة أحياء سميت في بعض الأحيان نسبة إلى أولى العروش الذين نصبوا خيامهم بجوار الوادي وهذه الأحياء هي: حي المامين، حي أولاد زيروم، أولاد حميدة، أولاد حركات، أولاد عزيف، أولاد هلانف[32]. أما فيما يخص تعداد الفئات الاجتماعية المحلية وغير المحلية فقد جاء كمايلي:

أولا / العنصـر الأجنـبي (المعمرون): يوجد بالدائرة جنسيات أجنبية متعددة وبنسب مختلفة، تشكلت بحسب طبيعة وجودها بالمنطقة. وقد قدم لنا الرحالة إحصائية رسمية أخيرة جاءت كما يلي:

أ- **الإسرائيليون:** جاء ذكر فئة اليهود من طرف السلطة الاستعمارية بالإسرائيليين (مصطلح الأمة) وتجنبت المصطلح الفئوي وهو اليهود، كما أنها لم تعمم هذا على باقي الفئات، مثل الأيبيريين (الإسبان) والرومانيين (الإيطاليين)، بالإضافة لهذا فإن الرحالة يشير في نفس الوقت إلى القرابة التي تجمع الإسرائليين بالعرب، حيث يقول:«...يمارس اليهود في بوسعادة على غرار أبناء عمومتهم أنواع التجارة والصياغة...»[33]. وهذا في رأينا تشجيع معنوي يضاف إلى التشجيع المادي الذي يمارسه الإستعمار بمنحه هذه الفئة مجموعة من الإمتيازات السياسية والعسكرية وغيرها، جعلتها تشكل أكبر تواجد أجنبي بالمدينة، حيث بلغ عددهم 375 نسمة[34]، وهم يتواجدون منذ وقت غير معلوم وساعدهم في هذا الوجود تعايشهم مع العرب[35]، يمارسون التجارة والصياغة وبيع المجوهرات، وتجارة القماش وبيع الحبوب والخردوات، ويتبعون سياسة- الدورو أيجيب خوه- بمعنى الدورو يحصل دورو مثله، وسياسة القروض الغير مضمونة، حيث يصل القرض في دائرة بوسعادة إلى 850.000 فرنك فرنسي، لكن لا وجود لرهانات أو ضمانات صلبة، وهذا هو حال عموم الجزائر[36]. أما النساء اليهوديات فيمتهن مهنة النسيج، غزل الصوف وحكاية البرانس والزرابي[37]. وعليه فالصورة النمطية لهذه الفئة واضحة، فهم ذوي هيمنة وجشع في التجارة والمال، حيث يستغل اليهودي الأوربيين والمواطنين من أبناء البلد وهم الأكثر تضررا من الجشع اليهودي في المعاملات التجارية الربوية، الذي يستغل جهل بعض الناس بالدين أو عدم مبالاة بعضهم بأحكامه التي تحرم الربى، فكان هؤلاء ضحية اليهود الاستغلاليين والغشاشين، والصورة واضحة عندما وقف الرحالة على إحدى خدعهم، حين قام أحد اليهود وقدم قطعا ذهبية للموسيقيين، لكن الأعراب أخبروه بأنها خدعة يستدرج بها الغرباء ليجودوا بما لديهم من المال[38].

ب- الأجانب (المعمرون): هكذا تم وصف هذه الفئة من طرف الإدارة الفرنسية، فهو اعتراف غير مباشر لسياسة فرنسا الاستيطانية التي عملت على تجسيدها وبعثها بشتى الطرق والوسائل، إلا أن السلطة الاستعمارية تعمدت استثناء الفئة الفرنسية من هذا الوصف، واكتفت بذكر الجنس دون الصفة. ولا ربما هو اعتراف ضمني بأحقية وأولوية الفرنسي في التواجد في هذه البلاد. ونشير أن عدد هؤلاء الأجانب المعمرون بلغ 72 نسمة، من مالطا وإسبانيا وإيطاليا.

ثانيا / العنصر المحلـي: حيث بلغ عدد العرب في هذه الفترة 5020 نسمة، بالإضافة إلى إحدى عشر تونسي ومغربي، ويمكن الإشارة هنا أن هذا الإحصاء الذي قدم للرحالة من طرف السلطات الاستعمارية الفرنسية يكاد يكون نفسه الذي قدم للرحالة بول أدال paul Audel، من خلال رحلته من الجزائر إلى بوسعادة alger à bou-saada التي كانت سنة 1899م، أي عامين فقط بعد هذه رحلة لدو غالون سنة 1897م. حيث يقول بول أدال: «...هذا المكان ستة مائة منزل لستة آلاف ساكن. هنا كما في كل مكان: عقدتنا الوطنية في العدد محزنة، بصعوبة شديدة صار عددنا منذ آخر إحصاء: 135 فرنسيا، على 72 مالطيا و إسبانيا و إيطاليا، 359 إسرائيليا، و 5000 مسلما عربيا: تونسيين ومغاربة...»[39].

2.1. مدينـة المسيلـة : تشترك مدينة المسيلة المختلطة في الحدود مع البيبان والمعاضيد شمالا وملحقة بريكة شرق وأولاد دراج الشرافة وبوسعاد جنوبا، وسيدي عيسى وعومال(سور الغزلان حاليا) غربا. تبلغ مساحتها 383،963 هكتار وعدد سكانها حوالي 30.000 نسمة، صنفهم الرحالة دي قالونDe Galland إلى بدو وحضر.

أولا / البـدو: و حسب رأي الرحالة فهم قوم أميون ونادرا ما تجد بينهم طُلبة، ويتبعون نظام العرش، أين تعود مسؤولية الأسرة الكاملة بيد رب العائلة، كما تحرم المرأة لديهم من الميراث، وهم على المذهب المالكي ، ومن بين هؤلاء البدو المقيمين على أطراف مدينة المسيلة والمناطق المجاورة لها عرش أولاد دراج وهم قوم متعصبين ، إلا أنهم يتمتعون باحترام كبير ووقار بين مختلف الأعراش والقبائل في المنطقة، بفضل الكرامات التي امتاز بها مرابطيهم.

و عن إقامة هؤلاء البدو في المنطق، فهي في شكل نزلات –جمع نزلة – والنزلة تتكون من أربعة خيم إلى ثمانية. ففي فصل الخريف يقوموا بأعمال الحرث والزرع تاركين باقي الأعمال والأشغال للخماسين ، و بحلول فصل الشتاء ينتقلون بقطعانهم من المواشي، والإبل، والخيول إلى شط الحضنة لتوفر المرعى والكلأ بشكل كاف. ثم يعودون إلى مضاربهم في فصل الربيع لبيع الشعير والقمح والصوف ، وبحلول فصل الصيف يرتحلون نحو المناطق التلية[40].

ثانيا/ الحضـر: أما عن الحضر فيقيمون في مدينتي المسيلة وبوسعادة في منازل مبنية في الغالب باللبن أو من خليط الطين اليابس مع التبن وأسقف البيوت في الغالب من التراب المطلي بالجير يحمل على جريد النخل وجذوع الأشجار ،لا يملكون القطعان من الأنعام والإبل ، ولكن يكسبون الماعز والثيران ، البغال وتربية الخيل ، ومعظم السكان يعملون في البساتين التي تنتج التين ، المشمش، الخوخ ، إلى غير ذلك . وهم يورثن أراضيهم للبنات على العكس البدو[41].

بالإضافة إلى فئة البدو والحضر بتعداد 4222 نسمة، هناك فئة الأجانب التي تضم 120 أوربيا، و95 إسرائيليا يقطنون في الأحياء الأوربية بالمدينة[42]. لقد اكتفى الرحالة بذكر هذه الفئة دون التطرق لنشاطها، ولعله تجنب التكرار لأن نشاطهم المتمثل في التجارة والأعمال الربوية وشرب الخمر وتجارة الجنس هو نفسه في مدينة بوسعادة.

2.عـادات وتقاليـد المنطقـة:

هناك عادات أصيلة عرف بها المجتمع الحضري عموما في هذه الفترة، وهناك عادات دخيلة أخرى لا تمت بأي صلة إلى سكان المنطقة، وإنما هي نتاج واقع حتمي فرض من طرف المستعمر الفرنسي وبعض الفئات الأجنبية التي عملت لصالحه كاليهود. ونتاج الفكر العقدي القديم المتوارث يضاف إليه الفكر الطرقي الصـوفي الخرافي المتخلف.

من العادات المتأصلة في المجتمع الحضري حسن المعاشرة و الاستقبال والضيافة، حيث عبر الرحالة عن هذه الميزة وأقر انتشارها في كامل المنطقة، من خلال تواجد اليهود بسبب تعايشهم مع العرب سواء في بوسعادة أو المسيلة منذ وقت غير معلوم[43]. وكذلك من خلال الاستقبال الذي خص به الرحالة في سيدي عيسى وعين الحجل وبوسعادة والهامل، من

طرف الأعيان و أهل المدينة، وتعبيرا من هؤلاء عن مدى حسن استقبالهم، يقوم الفرسان بتقديم مشاهد فروسية بالسلاح، على جياد مسرجة بالأحمر ويرتدون البرنوس، جامحين يصيحون ويطلقون البارود. حيث يقال أن الفارس ليس كل من يمتطي جوادا، بل إنه وهو يعدو يشحن سلاحه ويصوب ويضرب الهدف. وعن هذه الجياد يقول الرحالة أنها من أجود الأنواع، منها السوداء المزرقة والرمادية وبعضها يميل لونها إلى الوردي، يمتطيها الرؤساء في السباق والتنزه[44].

إلى جانب الفروسية هناك الضيفة، التي يقدم فيها أفضل أنواع وأشهى الطعام، أشهرها المشوي والحميص ، أكلة عبارة عن قطع من اللحم المطهي مع الكسكس وقد غرز في الكسكس حبات من الزبيب والمشمش والتمر، وفي الأخير يقدم طبق من الدجاج. أما في الصهرة فيتم تقديم طبق خاص عبارة عن خروف يوضع على نار متقدة في الهواء الطلق[45].

يضاف إلى هذا مهنة صيد الصقور التي يمارسها وبكثرة الشياد والباشاغات، ويعتبر شهر أكتوبر موسما جيدا لصيدها. حيث يتجه المربي على الجواد نحو المناطق التي تتواجد بها الصقور، آخذا معه مجموعة من طيور الحجل مربوطة، يضعها المربي على الأرض ويحيك حولها شبكة من خيوط الصوف الرفيعة ثم يثقلها بشيء ما يجعلها تطير لعلو محدود أو معدوم، حيث يتهيأ للصقور أنها فريسة مناسبة، وما إن ينقض عليها الصقر حتى تعلق مخالبه بالشبكة الصوفية، وهكذا يمسك به المربي ويوثقه ثم يواصل الصيد إلى أن يستوفي العدد، وهي طريقة المتبعة في العصور الوسطى. تأتي بعدها المرحلة الثانية وهي مرحلة التدريب الشاق من صيد ونداء وأصوات خاصة، حيث من النادر أن يهرب الصقر من صاحبه كما أنه يحب التغذي من صيده الخاص المتمثل في المالك الحزين، والسمان، والغزلان[46] والأرانب، كما يتم إطلاق سراح الصقور في مارس للسماح لها بالتزاوج[47].

هناك أيضا المعتقدات التي توصف بالدجل والشعوذة، وهي سلوك وثني وشركي، يتم فيه الاستعانة بقوى غيبية وثنية وأضرحة...إلخ، وكل هذا يتنافى و يتناقض ومعتقدات الإنسان المسلم. مثال ذلك ما يقوموا به الفلاحون من وضع جماجم الأغنام في الحدائق بهدف طرد العين والسحر[48] وعادة أخرى يمارسها المرابطين بالمسيلة، مفادها أن المرابط يضمن الزواج لكل إمرأة تستطيع أن تمسك بحلقات حديدية في آن واحد، تم غرزها على أبواب كبيرة من الخشب [49]. هي ظاهرة وسلوك بدعي محرم شرعا، وممقوت ذوقا كان موضع ملاحظة الرحالة في مجتمع؛ لا يعي فيه البعض ما يمارسونه من السلوك المحرم،فيقول:«... وهذا يبدوا وكأنه سخرية من النساء...ولا تزال الزاوية قائمة ولكنها ليست بالإزهار الذي كانت عليه »[50].

ومن الموضوعات التي شغلت الرحالة، المرأة والعادات، فتحدث عن وضعها الاجتماعي، وخلقتها ولباسها وأعمالها[51] فجاء الحديث في هذه الرحلة عن ظاهرة النايليات بائعات الهوى، التي أسال حولها بعض الرحالة والباحثين في علم الاجتماع والمؤرخين الكثير من الحبر، ودرسوها من جوانب وزوايا عدة، لكنها تبقى دراسات فاقدة للموضوعية والمنطق، وكيف لا؟ ومجمل هؤلاء ينتمون للمدرسة الكولونيالية التي تبحث عن الشهرة الإعلامية السياحية، إرضاء للذات وللسلطة الاستعمارية، وتعمل جاهدة على تشويه التاريخ وإلغاء الآخر .

إنه لا يمكن بأي حال نفي وجود هذه الآفة وانتشارها في المجتمع الحضني في هذه المرحلة، لكنه في نفس الوقت لا يمكن تأصيلها و حصرها في فئة دون أخرى، أو في منطقة دون أخرى، أو في مجتمع دون آخر. فآفة الزنى وجدت بوجود آدم فوق الأرض ولن تنتهي إلا بفناء أحفاده. هذه المرحلة التي فقد فيها الإنسان الجزائري عموما والحضني خصوصا كل مقومات الحياة، فأصبح بفعل الإستعمار الفرنسي ضحية التسلط، والجهل والبدع والخرافات، والفقر المدقع، والأمراض الفتاكة، و حتى الطبيعية بقساوتها وشح مردودها. فطبع بطابع البداوة والترحال بحثا عن الأمن والاستقرار، مما جعل وخاصة فئة النساء يقعن فريسة سهلة في يدي أذناب المستعمر من الأهالي عموما واليهود خصوصا، في وقت سقطت فيه الأخلاق، و لم يبقى للقيم الدينية مكان، فحلت محلها الدجل والدروشة فعم الجهل وغاب المسجد والزاوية. وأصبحت الغاية تبرر الوسيلة، وهذا ما نستشفه من المعالجة الموضوعية الرحالة دو غالون عندما وصف وحدثنا عن الظاهرة.

المكان موجود بالساحة العامة ببوسعادة بالقرب من المدرسة ومخفر للشرطة وهذا له أكثر من دلالة، بمعنى هناك تشجيع ورعاية من طرف المستعمر لهذه الظاهرة. تختبئ فيه مجموعة من النسوة في وحدة وعزلة، وأن القاطنين لا يزالون بدائيين في تصرفاتهم وفي نظراتهم، والمرأة لا يهمها سوى المكاسب من خلاخيل وأكاليل وهو نفس الحال بالمسيلة. يحتوي المكان على صالة رقص وناد لشرب الخمر متسخ، يستأجره يهودي لقاء 500 فرنك لفائدة البلدية (المحتل)، ويتقاضى 20 فرنك عن كل غرفة[52].إنه جشع في التجارة والمال و الممارسات القذرة، صفات لازمت اليهود أين ما حلو وارتحلوا، كان ضحيتها البعض من سكان المنطقة، سواء ممارسين أو متواطئين، أو صامتين يأسا و إحباطا. همهم الأكبر هو تحصيل لقمة العيش في مجتمع ساد فيه الفكر القبلي و طغى عليه مبدأ الولاء للقوي.

رغم تعاسة المكان و إتساخه؛ إلا أن الرحالة أعجب كثيرا برقصة النايليات والسعداويات، وهي رقصة جماعية يتقابلن فيها مثنى مثنى ثم يتداخلن ذهابا وإيابا ويشابكن أيديهن ببعض في حركة متكررة[53].ودافع عن هن وقال: أن النساء النايليات والسعداويات يعانين من خرافة يتداولها الأجيال وهي أن هن غير وفيات ومنذ القدم، ولا يصلحن لتكوين الأسرة، مع أن هذه تبقى خرافة لا أكثر، فمثيلاتهن من المسيلة وبسكرة لا يجدن صعوبة في التعايش مع المجتمع[54].

V. الجانب الإقتصادي:

1. التجارة:

وهي عبارة عن مبادلات تجارية يقوم بها المجتمع الحضري القاطن بالمدن مثل مدينة بوسعادة ومدينة المسيلة. فبوسعادة تعد مركزا للتجارة والأسواق الأسبوعية والصفقات المعتبرة، حيث تباع كل سنة 130 ألف رأس من الماشية و 150 ألف جزة صوف يجلبها أهالي وادي الرهير، وتتم مبادلتها بالحبوب الآتية من سهول الحضنة وسطيف في السوق الأسبوعية التي تقام كل ثلاثاء. ويشير هنا الرحالة إلى الدور البارز لفئة بني ميزاب فهم منتشرون ليس فقط في بوسعادة بل في ربوع الجزائر، فهم قوم فطروا على التجارة منذ الصغر في بوسعادة، يتنافسون مع غيرهم من التجار بحيث يحتكرون السلع المفقودة من قماش وجواهر وحدي[55]. وهم إلى الآن يمتازون بهذه الصفات التجارية.

أما بالنسبة لمدينة المسيلة، فتقام بها سوق أسبوعية ثلاث مرات في الأسبوع ،الأحد ،الأربعاء، الخميس، يتم فيه بيع كل شيء كما يقصده التجار والمتسوقون من المناطق القريبة من المدينة، و حتى البعيدة؛ فأحيانا يقصده متسوقي منطقة القبائل الذين يحملون معهم الزيت والتين المجفف ويأخذون الصوف والحبوب والجلود[56].

2. الحرف والصناعات اليدوية:

تنتشر هذه الحرف بشكل كبير في الشوارع الرئيسية للمدن، كما هو الحال في الشارع الرئيسي لمدينة بوسعادة، الذي يضم الأحياء العربية و تنتشر وتنشط فيه تجارة اليهود وحرف العرب وصناعتهم المحلية، المتمثلة في صناعة الجلود والحلي وكذا صناعة الخزف[57].بالإضافة إلى هذا هناك صناعة النسيج التي تمارسها النساء في مثل (الحايك، البرنوس، الزرابي)[58].

تتعد الحرف في مدينة المسيلة، التي تتمثل على الخصوص في صناعة الجلد الذي تشتهر به، المطرز بالذهب والفضة وبالحرير المتعدد الألوان، ولهذا فهو مطلوب لدى العامة من صانعي الجلود. وأشهر أنواع هذه الجلود وأكثرهم جودة وطلبا؛ النوع المعروف بالفيلالي، لونه أحمر ويمتاز بالليونة ويستعمل في صناعة أشياء عدة كالجبيرة، الخف، الأحذية بمختلف أنواعها ، سروج الخيل، وفي الغالب يكون مزودا بزخارف عربية أشهرها الزخرفة الوردية[59].ضف إلى ذلك العديد من الصناعات التي لها لمسة فنية وتقنية مثل صناعة المحراث الخشبي، وأواني الأكل المنزلية، القصعة، السطل، المغارف، الطاجين، القدر، الكسكاس، الفناجين، صناعة الثياب (البرانيس القشاشيب، الحياك) وصناعة الزرابي والأفرشة وصناعة الأسلحة التقليدية[60].

VI. الجانـب الدينـي:

شكلت المرافق الدينية بالمنطقة محل إهتمام الرحالة، من خلال وصفها وتعدادها والتعريف بها، مبرزا في نفس الوقت دور المسجد والزواية. فالرحالة على ما يبدوا ذو ثقافة إسلامية واسعة.

1. المساجــد:

من أهم المساجد التي تطرق إليها الكاتب، مسجد أولاد عتيف الذي زين بقبتين كبيرتين هما: قبة سيدي بن عطية، وقبة سيدي إبراهيم وهو مسجد قديم به زاوية صغيرة. ومسجد آخر يسمى بمسجد النخلة العتيق، يقع بالقرب من منبع عين القصر[61]. أما في مدينة المسيلة فيوجد بها 17 مسجدا أهمها : مسجد بوجملين، مسجد سي عمر بن عبيد، مسجد خربة التليس، وقد لاحظ الرحالة في هذا الجانب كيف أن المسلمون مبتعدون عن الدين، رغم أن الزاوية قائمة ولكنها لم تعد بنفس الإزدهار والدور الذي كانت عليه من قبل[62]. لأنه لايكاد يخلوا مسجدا من هذه المساجد من الزاوية .

2. الــزوايــا:

لقد كان الرحالة موضوعي إلى أبعد الحدود في الطرح الذي تقدم به، عندما تكلم عن حياد الأمة الإسلامية عن مسارها الديني بعد وفاة الرسول (ص)، حيث فقدت روح الإسلام وتوغلت في المكاسب وسعت وراء المادة على حساب الدين، فكان لعلماء الدين مسؤولية حمل المشعل ولكنهم بدورهم إبتعدوا كثيرا عن هذا المسار، عندما إنتابهم الغرور وأصبحوا خطرين وأقرب إلى الثراء منهم إلى الورع، وبهدف ملأ الفراغ وتحمل المسؤولية إعتزل بعض الفقراء وتفرغوا للعبادة والزهد في الدنيا تقربا لله ليصبحوا فيما بعد أولياء الله. كما لقبوا بالمرابطين وقاموا بتأسيس زوايا مختلفة من حيث المنهج والمفهوم والعادات، بعضها ساير التوجه الإستعماري وأعلنت ولائها للسلطة الفرنسية، فرأى الرحالة انه ليس هناك جدوى من محاربة الصوفيين ولا توجد فتوى تقضي بذلك، فالقاضي أو الإمام في الجزائر هما مجرد موظفين ليس إلا. كما أن المتدينين يفتقدون للقدرة السياسية، إلا أنه كان للزوايا والطرقية دورا فعالا في محاربة الإستعمار وكانت دائما مصدر غليان شعبي، وهي لا تزال موجودة إلى الآن. والسؤال الذي يتبادر للذهن: ماهي أسباب ودوافع التي أدت إلى تغيير موقف الزاوية ورجال الدين من العداء إلى الولاء؟[63].

يعود تأسيس زاوية الهامل إلى الشيخ محمد بن بلقاسم، وريث العلم والقيادة من شيخه المختار بن خليفة مؤسس زاوية أولاد جلال(دائرة بسكرة)، الذي توفي سنة 1862م، الأمر الذي دفع بمحمد بن بلقاسم إلى مغادرة الزاروية متجها نحو قريته بالهامل، أين أسس الزاوية الحالية سيدي عبد الرحمن بن أيوب من أجداده، الذي كان على رأس الهاميلين والتائهين الذين قدموا من المغرب واستقروا بهذه المنطقة التي يسمونها نسبة لهم الهامل وكان ذلك في القرن الثامن الهجري.

تعتبر الزاوية من أشهر الزوايا التابعة للطريقة الرحمانية، يقوم بتسيير شؤونها طاقم ديني يضم كل من : الشيخ وملازمه الخليفة، يساعد هذا الأخير على أداء مهامه المقدم، وهو مكلف بتوجيه التعليمات للإخوان ويتوسط في ذلك الركاب أو الشاوش، وأخيرا مدرس القرآن الذي يقوم بتدريس الطلبة (المريدون)، القاصدين الزاوية من كل صوب، حيث أحصى الرحالة 350 مريد من شرفة الهامل، 300 من جبل أم ساعد، 350 أولاد أحمد، 140 من أولاد محمد المبارك، 30 من أولاد عمارة، 200 من أولاد علي بن محمد، 450 من أولاد خالد، 280 من أولاد سيدي زيان، 60 من أولاد الريب، 70 من أولاد عامر لقبالة، 500 من بوسعادة، 100 من الرمانة [64].كل هذه الأرقام قدمها الرحالة دون أن يشير إلى طبيعة هذا الإحصاء هل هو شهري أم سنوي أو غير ذلك، لكنها في نفس الوقت أرقام تدل على تعلق السكان بالقرآن وحبهم لدينهم، و كذلك الدور الهام الذي تقوم به الزاوية المتمثل في تدريس القرآن وتعليم علوم اللغة والفلك والحساب

وغيرها من العلوم، بالإضافة إلى دورها الاجتماعي المتمثل في تقديم الطعام للفقراء ومنحهم القمح[65]. لهذا فهي من أشهر الزوايا التابعة للطريقة الرحمانية.

الخاتمـــة:

و في الأخير فإن كتاب " رحلة إلى بوسعادة ومسيلة " للرحالة شارل دو غالون يمثل وثيقة تاريخية تعكس جانبا مهما من الحياة الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، السياسية، والعسكرية خاصة في فترة زمنية حرجة عرفت فيها منطقة الحضنة على الخصوص والجزائر على العموم أبشع فترات الإستدمار من طرف الاحتلال الفرنسي، و هي بذلك مصدرا و وثيقة علمية تاريخية تساعدنا على رسم صورة للمجتمع الحضني من جهة، و كتابة التاريخ المحلي للمنطقة خلال هذه الفترة من جهة أخرى.

الهوامش:

1) Sabrinal," Alger Un Lieu Histoire Le Parc De La Liberté(ex- parc de galland)", Le Soire D'alger, N^{0}5334, Alger, 15/06/2008,p07
2) Edmond BERLUREAU, Un Deuil Algerois M. Charles De Galland Est Mort Heir, Écho Alger, N^0 4915, Alger, Jeudi 22 Mars 1923, p02
3) Galland, (DE), Et Dautre, Ascensions Dans Le Djurjura,Club Alpin Fraçais, Section De L'atlas, 1907, Page De Garde.
4) Galland (DE) :Excursion de Bou_saada à M'sila .Ollendorf.Paris.1899, p29.
5) Galland (DE) , Excursion de Bou_saada à M'sila, op.cit, p33.
6) Op.cit, p75
7) Ibid, p76
8) Galland (DE) , Excursion de Bou_saada à M'sila, op.cit, p31
9) Op.cit, p15
10) Ibid, p13
11) Ibid, p18
12) Galland (DE) , Excursion de Bou_saada à M'sila, op.cit, p31
13) Op.cit, p32
14) Ibide, p38
15) Ibide, p44
16) Ibide, p45
17) Ibide, p49
18) Galland (DE) , Excursion de Bou_saada à M'sila, op.cit, p50
19) Op.cit, p49
20) Ibid, p81
21) Ibid, p81
22) Galland (DE) , Excursion de Bou_saada à M'sila, op.cit, p49
23) Galland (DE) , Excursion de Bou_saada à M'sila, op.cit, pp32-33
24) Op.cit, p48
25) الرحالة يعتبر الوجود التركي بالمنطقة إحتلال لذلك عبر عنه بالغزو وهذه نظرة إستعمارية لأغلب الكتاب الأربيون للوجود العثماني بالجزائر .

26) Galland (DE) , Excursion de Bou_saada à M'sila, op.cit,p.82

27) بيرم كمال، مدخل إلى تاريخ المسيلة- من الإحتلال الروماني إلى العهد العثماني، دار الأوطان، الجزائر، 2012.، ص ص 216- 217

28) Galland (DE) , Excursion de Bou_saada à M'sila, op.cit,p82

29) Op.cit, p82

30) Galland (DE) , Excursion de Bou_saada à M'sila, op.cit, pp82-83

31) Op.cit, p33

32) Ibid, p35

33) Ibid, p38

34) Ibid, p35

35) Ibid, p36

36) Galland (DE) , Excursion de Bou_saada à M'sila, op.cit, p38

37) Op.cit, p36

38) Ibid, p63

39) Paul Eudel :d'Alger à Bou-saada ,Augstin CHLLAMEL,Editeur,Paris,1904, pp49-50

40) Galland (DE) , Excursion de Bou_saada à M'sila, op.cit, p84

41) Op.cit, p.84

42) Ibid, p86

43) Ibid, p36

44) Galland (DE) , Excursion de Bou_saada à M'sila, op.cit, pp 16-17

45) Op.cit, p19

46) الغزال: جاء ذكره ليعزز ويؤكد على وجود هذه الفصيلة الحيوانية بالمنطقة، وفكرة الصيد تشير إلى تواجده بكثرة.

47) Galland (DE) , Excursion de Bou_saada à M'sila, op.cit, p24

48) Op.cit, p24

49) Ibid, p24

50) Ibid, p92

51) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830- 1954، ج6، دار البصائر، الجزائر، 2007، ص383

52) Galland (DE) , Excursion de Bou_saada à M'sila, op.cit, p53

53) Op.cit, p.59

54) Galland (DE) , Excursion de Bou_saada à M'sila, op.cit, p35

55) Op.cit, p38

56) Ibid, p84

57) Ibid, p41

58) Ibid, pp 36-38

59) Ibid, p89

60) Galland (DE) , Excursion de Bou_saada à M'sila, op.cit, pp84-89

61) Op.cit, p45

62) Ibid, p92

63) Ibid, pp65-66

64) Galland (DE) , Excursion de Bou_saada à M'sila, op.cit, pp68

65) Op.cit, pp67- 69